

الفن القصصي في جنوب إفريقية من الرومانسية الى الثورية

محمد جلال عباس

ليس من شك في أن ظروف الصراع العنصري في جنوب إفريقيا كان لها أثرها الكبير على مختلف فنون الأدب وبخاصة الفن القصصي. وجدير بنا ونحن نشارك العالم اهتمامه بقضية جنوب إفريقيا أن نتابع أيضاً تطور الآداب والفنون في ظل تلك الظروف. ونقدم هنا محاولة لاستجلاء تاريخ وملامح الفن القصصي في ظل الظروف السائدة وتطورها في هذا القطر الذي يعاني شعبه كل أنواع القهر والقمع ولكنه يلقى من العالم كله المساندة والتأييد.

سرية» ولكن كما هو معروف ينتهي أمر معظم تلك المواد الأدبية المتداولة سراً إلى أيدي رجال الشرطة العنصرية، فيحاكم القارئ بتهمة القراءة كما يصل الأمر بالطبع إلى محاكمة الكاتب بتهمة الكتابة طبقاً للقوانين العديدة التي تحرم النشر وتجزمه.

وكان قانون الأراضي الذي صدر عام ١٩٢٧ هو أول القوانين التي نصت بصراحة على منع الصحفيين والكتاب في الأراضي المخصصة للأفريقيين من جمع أي معلومات أو نشر أي أبناء عنها بدون تصريح مسبق من السلطات المختصة.

ومنذ أن سيطر الحزب الوطني الذي يمثل مصالح المستوطنين البيض على البلاد تماماً بعد الحرب العالمية الثانية صدرت سلسلة من القوانين تضمنت الحد من النشر والطباعة مثل بعض مواد قانون الأمن العام سنة ١٩٤٨ وقانون نظام السجون سنة ١٩٤٩ وقانون قمع الشيوعية سنة ١٩٥٠ ونص بصراحة في قانون العقوبات المعدل رقم ٨ لسنة ١٩٥٣ على ما يلي:

« يعتبر في عداد الجريمة أي توجيه أو تشجيع أو إثارة للرأي عن طريق الكلمة المسموعة أو المقروءة، أو نشر أي أشياء تنتقد القانون أو تصرفات الحكومة ويدخل ضمن

الحياة الثقافية في جنوب إفريقيا:

رذت زوجة أحد قصاصي جنوب إفريقيا المشاهير على سؤال أصدقائه عن أحواله بعد خروجه من السجن وتحديد إقامته في منزله قائلة « إنه يقضي وقته في كتابة القصص والمقالات»، ولما استفسروا منها عن كيفية إفلاته من قبضة رجال الشرطة العنصرية قالت « كلما أم صفيحة أخفيت تحت مشمع الأرضية أو في قاع سلّة البصل ثم أخذها معي إلى السوق لتصل من خلال البقال أو الجزار أو أحد المستوطنين أو المستكعين العاطلين إلى حيث تطبع ويتداولها الناس سراً».

لم يستطع هذا القصاص وغيره من الكتاب مواصلة الحياة في ظروف الانغلاق فهاجر إلى خارج البلاد لينضم إلى المئات من أقرانه الذين هربوا بأقلامهم ليشرعوا في وجه حكومة الأقلية العنصرية البيضاء، وليخاطبوا العالم في حرية وانطلاق.

ولا يعني هذا أن الأدب والفن قد هاجر تماماً من جنوب إفريقيا بل إنه كما ذكر الشاعر الشاب ديفيس بروتس « بقي الكثيرون يكتبون ويبعدون دون أن يشتهروا على نطاق واسع، ولكن كتاباتهم تقرأ في كل مكان وتحمل إبداعاتهم الرسالة بالقصة والقصيدة والمقال وغيرها من الفنون إلى أبناء الشعب يتداولونها في صورتها المخطوطة أو في منشورات

للتعبير ومدرسة تخرج فيها معظم الكتاب والأدباء والقصاصين الأوائل، ولكن حافظت اللغات البانتوية على وجودها كأداة للتعبير جنباً إلى جنب مع اللغة الانجليزية التي أصبحت لغة رسمية ولغة تعليم.

وظهر في هذه الفترة المبكرة أول كاتب روائي في جنوب افريقيا هو توماس امقولولو الذي كتب بلغة السوزو رواية «شاكّا» التي تحكي بطولية هذا الزعيم الوطني الذي حاول توحيد البانتو لمواجهة الغزاة البيض الذين أخذوا في عهده يزحفون على أراضي الوطنيين ويغتصبونها ويسخرونها في زراعتها.

ولما ترجمت رواية شاكّا إلى الانجليزية والفرنسية فيما بعد أصبحت مصدر وحي لأدباء آخرين من القارة الافريقية، فقد استلهم منها الشاعر السنغالي الشهير ليوبولد سنغور «الرئيس السابق للسنغال» مسرحيته الشعرية التي تحمل نفس العنوان «شاكّا» كما حولها الكاتب المالي سيديو باديان كوياتي إلى مسرحية بعنوان «غازي الزولو» مثلتها العديد من الفرق المسرحية في غرب افريقيا الناطقة بالفرنسية وفي باريس خلال فترة المواجهة مع الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية. ونفس الشيء فعله الكاتب المسرحي «داهلومي» حيث مثلت مسرحيته في مدارس جنوب افريقيا ثم منعت بواسطة السلطات العنصرية البيضاء تجنباً لما تثيره في التلاميذ من حماس وطني.

الرواية التاريخية والرومانسية:

لم تكن «شاكّا» هي الرواية التاريخية الوحيدة التي ظهرت في تلك المرحلة المبكرة بل ظهر عدد من القصاصين والروائيين الذين يسمون الى هذا الجيل الأول الذي برزت أعماله في أعقاب الحرب العالمية الثانية وعلى رأسهم بيتر ابراهامز (Peter Abrahams) ودان جاكسون (Dan Jackson). وقد نشر بيتر ابراهامز العديد من القصص القصيرة في الصحف التي كانت تصدر في مدينة الكاب خلال الأربعينات الأولى ثم نشر في عام ١٩٤٦ أولى رواياته وهي «عامل التعدين» التي تصور فيها المعاناة التي يعيشها السود في ظل امبريالية البيض. وأعتبرها برواية الغزو الوحشي عام ١٩٥١ وهي تحكي قصة الغزو الكبير الذي قام به شعب البوير (الهولنديون المستوطنون) وما صحب عملية الغزو الهجرة الكبرى من جرائم قتل وابتادة وحشية واغتصاب الأرض واسترقاق لسكان. وانتهت الرواية بتصوير الهزيمة التي لحقت بشعب

ذلك الأفاقيص والشعر وغيرها مما ينشر في الصحف أو يطبع في كتب أو منشورات متضمناً احتجاجات مباشرة أو غير مباشرة».

وتكرر النص على تجريم كتاب المصنفات الأدبية وصناع المصنفات الفنية في عديد من القوانين الأخرى التي توالى إصدارها ومنها قانون الدفاع سنة ١٩٦٧ وقانون التحريات سنة ١٩٧٩ والذي نص على ما يلي:

«أي شخص يحاول التعليق المغرض المباشر أو غير المباشر أو يقوم بنشر أفاقيص أو أشعار أو أحاديث يريد بها التأثير على الغير يعنبر مرتكباً لجريمة يعاقب عليها القانون، ويتعرض بذلك للمحاكمة الجنائية».

هكذا أصبح النشر جنائية، وأي فن من فنون الأدب جريمة. وأخذ الأدب في السنوات الأخيرة يختفي وراء الأستار. ويمارس في سرية، ولكن رغم ذلك ظل قائماً كرسالة بين المفكرين والمبدعين وبين الشعب المناضل رغم الحجر والقمع والمنع والتجريم. بل وأخذ الأدب يخرج من وراء قضبان السجون إلى الشعب في كل أنحاء جنوب أفريقيا، ويصل من الخارج ليسهم في النضال. وينطبق هذا على الفن القصصي الذي تطور من مراحل المبكرة الرومانسية إلى مرحلته الثورية الحالية التي يعكسها صورة الحياة والاحتجاج والثورية.

أوائل القصص والروايات:

ظهرت طلائع الفن القصصي الحديث خلال النصف الثاني من القرن الماضي حيث ظهر من بين الملونين الذين تلقوا تعليمهم التبشيري من يكتب القصة بالأسلوب الحديث. ولئن كان معظم ذلك القصص المبكر كان يكتب باللغات البانتوية المحلية متضمناً أغراضاً وموضوعات تقليدية إلا أن بعض الكتاب كتبوا باللغة الانجليزية بعض القصص القصيرة الذي كان ينشر في المجلات المحلية، وكان بعض ذلك القصص يعكس صوراً للمعاناة والمخاوف وظروف اغتصاب الأرض والسخرة التي حلت محل الرق ومصاعب حياة عمال التعدين وغيرها من مظاهر الحياة الامبريالية التي طغت على البلاد بعد أن تمت سيطرة اسعمار البيض عليها بشق وسائل الإرهاب والتفجير والمؤامرات.

وأعقبت الحرب العالمية الأولى حركة نشر واسعة. حيث ظهر العديد من الصحف والمجلات التي أصبحت منبراً

المتابلي بعد القضاء على مقاومتهم في مذبحه كبيرة أحالت أحد الأنهار الجارية إلى نهر من الدماء، وفي واقع الأمر ما زال هذا النهر يحمل هذا الاسم حتى اليوم.

ولئن كانت رواية «عامل التعدين» تتميز بالطابع الاجتماعي ورواية «الغزو الوحشي» تتميز بالواقع التاريخي فإن روايته الثالثة المشهورة «أودومو في المصيدة» التي أصدرها عام ١٩٥٦ تتميز بتصوير خيالي لمستقبل الحياة السياسية في القارة الإفريقية بعامه، فهي تمثل انتقالاً بفكر الكاتب إلى التصورات المستقبلية التي استوحاها من واقع الأحداث الجارية في أنحاء القارة آنذاك. وخلاصة هذه الرواية أن أودومو الذي استطاع أن يصل إلى مركز السلطة وكرسي الحكم في دولة «بان أفريقيا» بمساعدة العمال ونساء السوق قد خان العهد حينما سلم لاجئاً سياسياً إلى دولة بلوراليا العميلة للاستعمار نظير معونة مالية دفعتها إحدى الدول الكبرى لينفذ بها أودومو بعض مشروعات التنمية في بلاده. ورغم أن في هذه المعونة مصلحة اقتصادية إلا أن الشعب في بان أفريقيا لم يقبلها لأنه اعتبرها مقابل خيانة وطنية، وتحرك زاحفاً إلى قصر الحكم ليحاصر ذلك الحاكم الخائن الذي مات في ركن من أركان القصر كالفأر في المصيدة.

وما يستحق الذكر أن هذه الرواية لقيت صدى كبيراً في أنحاء القارة آنذاك، فقد تراءى لكل من قرأها أن أودومو هذا يمثل شخصية كوامي نيكروما «من حيث الطريقة التي تولى بها الحكم» وكان نيكروما قد تولى الحكم بعد خروج لرواية بأشهر قليلة. ثم انتهى أمر نيكروما إلى انقلاب أطاح به كالانقلاب الذي أطاح بشخصه أودومو في المصيدة.

ومن الروايات التي تكشف عن طبيعة الصراعات النفسية التي يعيشها السود والملونون في ظل الفصل العنصري روايات دان جاكسون العديدة. ومنها المصيدة. ورقصة الشمس. وثمان الماس. وطريق طويل إلى لندن. والابتعاد نحو الغرب، وجميعها تعالج جوانب واقعية من حياة أفراد أو جماعات من السود والملونين. ومن رواياته التي يظهر فيها الطابع الرومانسي واضحاً جلياً رواية «علامات الحب» بطلها شاب أسود اسمه ماكبير يريد الزواج من فتاة بيضاء يجبهها اسمها ايزابلا، وتعارض أسرنا كل من ماكبير وايزابلا إتمام هذا الزواج من قبيل التعصب اللوني والتعصب الطبقي أيضاً حيث أن أسرة ماكبير أسرة فقيرة معظم أفرادها من الخدم أو الأتباع وإن كان ماكبير نفسه قد تعلم إلى مستوى عال. ورغم تلك

المعارضة يتم زواج العشيقيان في خارج البلاد حيث ذهب ماكبير ليدرس ويعود الاثنان برابطة الزواج ليلاقيهما من جديد (في القسم الثاني من القصة) المعارضة والمعاناة وعدم الاعتراف بسبب قوانين الفصل العنصري التي تحرم الزواج بين البيض والسود فضلاً عن المعارضة الاجتماعية.

ومن كتاب الرواية الرومانسية في هذا الوقت المبكر أيضاً روائي شهير يدعى بلوك موديسون (Blocke Modison) الذي نحا نحو السيرة الشخصية في رواياته وأهمها «اللوم على التاريخ» ويتصدى فيها لحياة الإفريقي غير المستقرة منذ طفولته وعلى مدى حياته كلها. ولقد اعتمد المنتج السينمائي ليونيل روفيسين على هذه الرواية في عمل فيلم بعنوان «عودي يا إفريقيتي» (Come back Africa) واشترك بلوك موديسون نفسه الذي اشتهر باسم وليام موديسون في تمثيل هذا الفيلم الذي عملت حكومة جنوب إفريقيا في أوائل الستينيات عند ظهور الفيلم على منع عرضه لما فيه من تصوير مأساوي للممارسات العنصرية هناك، وفعلاً نجحت في شراء أكثر نسخ الفيلم لإعدامها ومنع عرضها.

نحو القصة الاحتجاجية:

ولقد تغير الاتجاه الرومانسي الذي ساد الفن القصصي في النصف الأول من هذا القرن نحو اتجاه جديد ارتبط باتساع نطاق الصدام بين سلطة الأقلية العنصرية البيضاء وبين أغلبية السكان من السود والملونين، وكانت تلك السلطات قد أخذت تمعن في فرض سياسة الفصل العنصري وعزل السود في البانوسانات أو مستوطنات البانتو، ومنع تحركاتهم أو حرمهم من فرصها على التحرك من أجل أداء العمل. وبدأ الاحتجاج يسود أوساط السود والملونين خاصة بعد منع حزب المؤتمر الوطني الإفريقي الذي يترعمه نيلسون مانديلا من ممارسة نشاطه. وزاد الاحتجاج نتيجة لحوادث شاريفيل وغيرها من أحداث الصدمات المبكرة فانعكس ذلك كله على القصة والرواية.

ولقد لاحظنا ذلك بوضوح في كتاب ازيكيل امفاليلي (Ezikel Mphalili). فمن رواياته التي كتبها خلال الخمسينيات رواية «هنالك في الشارع الثاني» وهي سيرة طفولته وشبهته. يظهر في هذه الرواية بوضوح اتجاهه المعتدل إذ يوحى للقارئ بأن سنوات الطفولة التي قضاها في قريته في ظل الحياة التقليدية سنوات ضائعة من حياته لم ينعم فيها جديداً. الحضارة والثقافة الحديثة التي يؤمن بأن بعائنها يعيش لها.

حالة الضياع التي يعيشها الأسود الإفريقي في شخص شاب جريح مضروب بمدية في شجار عنصري متكرر، تتداعى عليه ذكريات المعاناة والفقر والبطالة من رائحة البطاطين التي يغطونه بها في داخل قسم الشرطة إلى أن تأتي سيارة الإسعاف فتغطيه في داخلها بطانية نظيفة دفيئة تتداعى معها الحياة الطيبة المستقرة.

ومن قصصه الذي يجمع بين واقعية عاشها واحتجاجية تنبثق من داخله مليئة بلمسات إنسانية قصته « من خلال الظلام » التي يصور فيها حياة السجون التي خبرها، من خلال زميل الزنزانة الذي يحكي قصة دخوله السجن نتيجة صراعاته الساخنة وانفعالاته الشائرة ضد قوانين الفصل العنصري والحاجز اللوني.. تلك الانفعالات التي أحالته إلى مجرم سجين الزنزانة.

ومن قصاصي هذا الجيل أيضاً ريتشارد ريف وجيمس ماتيو، ولئن كانت قصصها من النوع الاجتماعي إلا أنه لا يخلو من تصوير الغضب الناتج عن الفصل العنصري، ومن أمثلتها قصة « المطر » لريتشارد ريف، وتجري أحداثها في مطعم مملوك لليهودي بمدينة الكاب نلمس فيها من خلال النقاش الدائر نظرة اليهود العنصرية ضد السود والملونين كما تعكس آثار قوانين الفصل العنصري ومسائل الحب والزواج في أحداث العنف وما يثيره من أحزان.

ولجيمس ماتيو في قصصه أيضاً خاصية واقعية يعكس فيها حياته، فقد بدأ حياته كبائع صحف متجول، وظل يغالب الحياة حتى أصبح محرراً في مجلة درام (Dram) الأسبوعية المعروفة. وله قصة بعنوان « الحفل » يعبر فيها بإدراك واع عن العلاقات القائمة بين البيض من جهة والمتقنين السود من جهة أخرى. وما يحكم تلك العلاقات من عوامل نفسية أساسها عنصري تنعكس في شخصيات القصة التي تجمع من البيض رجالاً ونساء يتعاطفون مع السود المتقنين أو لعلمهم يتظاهرون بذلك، ويتخذون من السود عنصر تسلية، ومن بين السود شخصيات مثل شخصية رون الذي يناقح البيض ويتمسح فيهم من قبيل التفاخر بصدقاتهم والتقرب منهم، ومنهم شخصية أبولوس الكاتب الناشئ الذي يحافظ على كرامته ويرفع عن الأساليب غير الكريمة. ولا يوفق في التعامل معهم ويقف موقف الثورة في وجههم ورفض سلوكمهم وتصرفاتهم ومعاملتهم فيغادر الحفل رافضاً محتجاً.

فيها مع تقاليدهم الإفريقية ضرورة لا غنى عنها بعد أن تعايشت الثقافة الغربية مع الثقافة الزنجية وامتزجتا وتزاوجتا بصورة لا يمكن انفصالها بعد ثلاثة قرون من التعايش.

وتظهر فكرة التعايش بين الثقافتين والشعبين في قصته الطويلة « مسز بلوم » « Mrs Blum » التي يصور فيها اعتماد كل من صاحب العمل والعامل، أو المخدوم والخدام كل منها على الآخر، وبعد أن أظهر مثالب البيض الأخلاقية وتعصباتهم، وتعصب السود وثورتهم لكرامتهم يصل إلى حل هذا التصادم الصعب بتنازل كل منها عن تعصباته.

ولكن امفاليي كتب في مرحلة متأخرة قصصاً ساخناً مليئاً بالروح الاحتجاجية مثل قصته « عشاء الساعة الثامنة » التي يصور فيها ثلاثة أشياء أولها الشكوك الدائمة بين البيض والسود، وما يظنه البيض المتعاطفون مع لسود في أنفسهم من أنهم أصحاب فضل وأياد على السود. وثانيها تصوير جريء لما يجري في السجون من بشاعات، وفضائح. وثالثها جور القضاء وظلمه، وذلك كله من خلال شخصية القصة الرئيسية وهو رجل أصيب بعاثة أثناء وجوده في السجن بتهمة السرقة في محاولة رئيس السجانين أن يكتشف مكان تخبئة المسروقات ليستولي عليها، وانتهاء هذا السارق إلى قاتل السيدة أو الفتاة البيضاء التي كانت تدير الملجأ بسبب شكوكه فيها أيضاً.

ولئن كان امفاليي من جيل قديم تطور من الرومانسية إلى الاحتجاجية فإن هناك عدداً كبيراً من قصاصي جنوب إفريقيا ارتبطت حياتهم بالنضال والأحداث كما سنرى في ذكر أمثلة منهم.

قصص جيل النضال:

ويأتي في طليعة هذا الجيل الكاتب والقصاص اليكس لاجوما (Alex Lagoma) أحد مناضلي المؤتمر الوطني الإفريقي الذين اتهموا في قضايا عديدة وحكمت عليهم المحاكم العنصرية بأحكام مختلفة، وقد خرج لاجوما من السجن عام ١٩٦٤ ليقتضي سنوات في إقامة محددة في منزله تحت الرقابة مما اضطره إلى الفرار أخيراً إلى المهجر ليواصل الكفاح بقلمه مع رفاقه المهاجرين أو المنفيين.

ولاجوما كاتب غزير الإنتاج له مقالات وقصص عديدة في مجلات جنوب أفريقيا وكثير من المجلات العالمية وأتسمت قصصه بالواقعية وحرارة الاحتجاجية. فواقعيته تظهر في قصص كثير نأخذ منها مثلاً قصة البطاطين التي يصور فيها

انعكاسات الأحداث في القصة:

والقصة كرسالة بين الكاتب والقارئ بلغت في جنوب أفريقيا أقصى درجات السخونة والثورية والتي تمتزج بالجوانب الانسانية في تصوير الأحداث في قصص الكتاب الشبان الذين عاشوا أحداث الصدام الأولى في طفولتهم وعاشوا النضال والمواجهة وما زالوا يعايشونها في حياتهم يقاومون قوانين الفصل العنصري التي تسلبهم حق الحرية والمساواة، وتستخدم تلك القوانين وتطبق التعليمات بصورة مشينة مسيئة لتبرير أعمال الاعتقال والسجن بدون محاكمات وقمع المظاهرات وإرهاب الآمنين في داخل بيوتهم الى غير ذلك من الممارسات العنصرية الوحشية الخالية من الانسانية.

ومن قصاصي هذا الجيل كاسي موتسيبي (Kassi Motsisi) وله قصة بعنوان «المظاهرة». تدور أحداثها أثناء إضراب الافريقيين عن استعمال المركبات العامة بسبب رفع أجور الركوب فيها، ويتعرض الناس جميعاً بدون استثناء للتفتيش التعسفي والاعتقالات، ومواقف المواجهة مع قوات الشرطة، ففي القصة صور عديدة منها القبض على شخص وهو نائم في فراشه لأنه لا يحمل تصريح المرور (الموجود في جيب سرواله المعلق وليس معه في فراشه) وتوجيه تهمة السكر بمجرد وجود زجاجة خمر ولو فارغة على مائدة في داخل المطبخ، وتستمر

أحداث القصة إلى اليوم التالي حيث تحدث المظاهرة الكبيرة والصدام المباشر بين الشعب الآمن وقوات الشرطة، ويخرج من بينهم شرطي تدفعه إنسانيته إلى الابتعاد بطفلين يجرهما بعيداً عن موقع ضرب الرصاص، فتظن الأمهات به الظنون ويردنه قتيلاً، وتأتي أم أحد الطفلين لتبكيه لأنه شرطي طيب كان له معها موقف إنساني في الليلة السابقة.

★ ★ ★

هكذا مرت القصة في جنوب أفريقيا بمراحل متعددة تغير فيها شكلها وملاحمها مع تغير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مما يؤكد لنا أن صدى الأحداث ونبض الحياة يتردد فيها، كما يؤكد لنا أيضاً مشاركة القصة والرواية مشاركة فعالة في واقع الحياة ومسيرة النضال.

ولئن كان معظم ما نشر من قصص وروايات جاء على يد قصاصي المهجر والمنفى، إلا أن هناك الكثير من القصص ما زال يكتب في الداخل ويتداوله القراء، ويعتبر بمثابة رسالة تنتقل إلى المناضلين وتلعب دورها في مسرح أحداث صراع الشعب الافريقي ضد الحاجز اللوني والفصل العنصري في سبيل تحقيق مجتمع تسوده المساواة.

صدر حديثاً

علّمنا أن نتجاوز جنوننا!

للروائي الياباني

كينزا بورو أوي

ترجمة كامل يوسف حسين

منشورات دار الآداب